دراسات وبحوث

المقاومة الفلسطينية ليست انتحارًا، ولا إرهابًا.. بل استشهادًا

أ. د. أحمد محمد عبد الخالق
قسم علم النفس
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الملخص:

استهدفت هذه الدراسة، توضيح الجوانب الإسلامية والسيكولوجية للاستشهاد، على ضوء مثال واحد هو استشهاد الفلسطيني بالحزام الناسف، في الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني، ولهذا الصراع جذوره التاريخية، ففي اليوم الذي انتهى فيه الانتداب البريطاني في فلسطين في عام ١٩٤٨، أُعلنت إسرائيل كدولة، فاشتعلت الحرب بين الجيوش العربية وإسرائيل، وهُزمت هذه الجيوش، وطُرد قرابة نصف السكان الفلسطينيين من ديارهم إلى الشتات.

وفي عام ١٩٥٠، مررت إسرائيل قانونًا يعطي لكل يهودي في أي دولة، الحق في الهجرة إلى إسرائيل، وقام الإسرائيليون بممارسات إجرامية، من مثل: دفن الفلسطينيين أحياء، واستخدام أجساد الفلسطينيين الذين قبضوا عليهم، كقطع غيار للجرحى الإسرائيليين، وهدموا أكثر من (١٧,٠٠٠) منزل، ودمروا الأراضي الزراعية عن طريق «البلدوزر». ومن ثم؛ فقد أصبحت التربة خصبة لنمو ظاهرة الاستشهاد، وأدت إلى ظهور ثقافة المقاومة، اعتمادًا على مبدأ الجهاد الإسلامي، والحق في مقاومة المستعمر الإسرائيلي. ورأى كثير من المختصين في الشريعة الإسلامية، أن الاستشهاد في سبيل تحرير الأرض، هو أمر شرعي، ولا يعد انتحارًا ولا إرهابًا من أي نوع.

المصطلحات الأساسية: الانتحار الإيثاري، الإرهاب، الاستشهاد، الإسلام، الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني.

***

مقدمة:

في العام ٢٠٠٤، حدث قدر كبير من الجدل حول ما يقوم به الفلسطيني من استخدام الحزام الناسف، فيفجر نفسه مع الهدف المقصود، وقد عد ذلك كثير من الباحثين الغربيين إرهابًا، أو انتحارًا إيثاريًا Altruistic Suicide، في حين عدَّه كثيرون- على ضوء الرؤية العربية والإسلامية- استشهادًا Martyrdom في سبيل تحرير الأرض ومقاومة المحتل.

وتجدر الإشارة -بادئ ذي بدء- إلى أن كاتب هذه السطور مختص في علم النفس، وليس مختصًا في موضوع هذا المقال، ولكن مجلة «أرشيف بحوث الانتحار» Archives of Suicide Research، في العام ٢٠٠٤، طلبت من مجموعة من المختصين في علم النفس - اعتمادًا على نشرهم بحوثًا قريبة من هذا المجال- أن يكتبوا عن ظاهرة الحزام الناسف Suicide Bombers. وركز المشاركون في هذا العدد من المجلة، وهم أوربيون وأمريكيون وإسرائيليون، على أن هذا الفعل يعد إرهابًا. ولكن المقال الأصلي الذي كتبه الباحث الحالي، كان عنوانه: ليس انتحارًا إيثاريًا، ولا إرهابًا، بل استشهاد: رؤية إسلامية: Neither Altruistic Suicide, nor Terrorism but Martyrdom: A Muslim Perspective. والمقال الحالي ترجمة مختصرة قام بها كاتب هذه السطور لهذا البحث.

ومن الأهمية بمكان، الإشارة إلى أن المقال الحالي، قد اعتمد على أربعة مصادر على النحو الآتي: (١) مقابلات مع المختصين، و(٢) قراءة عدد محدد من المراجع عن الإسلام، و(٣) تحليل مضمون لما نشر في وسائل الإعلام العربية في العام السابق لكتابة هذا المقال (٢٠٠٣)، وبخاصة بعض الصحف اليومية، وبرامج التليفزيون، و(٤) مناقشة مع عدد كبير من الزملاء والأصدقاء من أساتذة الجامعة، ولاسيما المختصون في العلوم السياسية، والشريعة الإسلامية. ومن ثم؛ فإن المقال الحالي محدد بهذه المصادر.

هدف الدراسة:

هدفت هذه الدراسة إلى توضيح المفهوم الإسلامي للاستشهاد، أو ما سمي بالانتحار الإيثاري، أو الانتحار بتفجير الشخص لنفسه، وسوف نقصر الحديث أساسًا على نموذج واحد

فقط هو الحالات الفلسطينية، دون التطرق إلى ما حدث في أماكن أخرى من العالم. لعل أهمها ما حدث من تفجير بالطائرات، لمبنى مركز التجارة العالمي، في الولايات المتحدة، في الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١. والحقيقة أن مشاهد العنف والعدوان الصهيوني اليومية ضد الفلسطينيين، هي التي تثير مشاعر العرب والمسلمين، أكثر من أي حالات إرهاب في أي مكان آخر من العالم.

وتقدم هذه الدراسة عرضًا نظريًا لوجهة نظر الإسلام في الاستشهاد. وحيث إن بعض الباحثين يرون الاستشهاد انتحارًا ويسمونه «الانتحار الإيثاري»، نرى أن نقدم نبذة عن الانتحار بعامة ومعدلاته.

المعدل المنخفض للانتحار لدى المسلمين:

بينت بحوث كثيرة، ارتفاع المعدلات القومية للانتحار، في بلاد معينة كالمجر (٣٩,٩) وسيريلانكا (٣٣,٢) وفنلندا (٣٠,٣)، في حين تنخفض هذه المعدلات في البلاد الإسلامية ومنها مصر (٠,٠٤) والكويت (٠,٨) والبحرين(٣,١)، وذلك لكل ١٠٠,٠٠٠ من السكان في العام، تبعًا لإحصاءات منظمة الصحة العالمية وغيرها قرابة عام Lester, 1990 2001: 8. وقد قُدمت نظريات فيزيولوجية ونفسية واجتماعية عدة، لبيان أسباب الانتحار، واعتمادًا على النظريات النفسية، فقد وجد أن أهم العوامل النفسية التي ترتبط بسلوك الانتحار وتتنبأ به هي الاكتئاب، وبخاصة اليأس، هذا فضلاً عن الاضطرابات النفسية التي سميت بأسماء عدة، من مثل: العصابية، والقلق، وعدم الاستقرار الانفعالي. ويبدو أن الاضطراب الطبي النفسي من أي نوع، يزيد من خطر حدوث الانتحار، ويأتي على قمة القائمة؛ الاضطرابات الوجدانية، وسوء استخدام العقاقير والمواد النفسية، وسوء استخدام الكحول Lester, 2001: 11. وقد ظهر من دراسة على طلاب الجامعة في كل من الولايات المتحدة والكويت، أن الانشغال بموضوع الانتحار (حاليًا وسابقًا)، يرتبط بالدرجة في مقاييس الاضطراب النفسي، وظهر أن الاكتئاب أقوى منبئ بالانتحار في كل من العينتين-Lester & Abdel Khalek, 1998b. وفي دراسة أخرى كشف تحليل الانحدار، أن أفضل منبئات التفكير في الانتحار، تبعًا للمقاييس النفسية المستخدمة في هذه الدراسة هي - على التوالي- التشاؤم، ووسواس الموت، والقلق (في عينة كويتية من طلاب الجامعة)، في حين كانت المنبئات هي: التفاؤل (سلبًا)، والقلق، والتشاؤم، وقلق الموت، والجنس الذكري (في عينة أمريكية من طلاب الجامعة) & Abdel-Khalek Lester, 2002.

لقد ظهر -من ناحية أولى- أن معدلات الانتحار الفعلية، منخفضة في البلاد العربية الإسلامية، ومن ناحية أخرى، كشفت الدراسات أن العينات العربية، تحصل عادة على معدلات مرتفعة - بالمقارنة إلى العينات الغربية - في مقاييس الاضطراب النفسي من مثل: العصابية، والمخاوف، والاكتئاب، والوسواس القهري، والقلق، ووسواس الموت Abdel-Khalek, 1994, 2002; Abdel-Khalek&Eysenck, 1983, Abdel-Khalek & Lester, 1999, 2002, 2003a, 2003b; Lester & Abdel-Khalek, 1998a. وقد أشارت بحوث عدة،أن الرابطة قوية بين معدلات الانتحار، والاضطراب النفسي، وفي حالة الدول العربية الإسلامية، كان يفترض إما أن ترتفع معدلات الانتحار، وإما أن تنخفض متوسطات مقاييس الاضطراب النفسي، ولم يتحقق هذان الافتراضان معًا. ما تفسير هذا التضارب إذًا؟

التفسيرات كثيرة، ولكن يأتي على رأسها التدين، الذي يقوم بوظيفة الحصن والوقاية، وتؤكد هذا التفسير، دراسات كثيرة أجريت في بلاد إسلامية Dale,

1988. وأجريت دراستان مقارنتان بين طلاب الجامعة في كل من الولايات المتحدة الأمريكية والكويت، والولايات المتحدة ومصر، كشفتا عن ارتفاع التدين ارتفاعًا كبيرًا لدى الكويتيين والمصريين بالمقارنة إلى نظرائهم الأمريكيين Abdel-Khalek & Thorson, 2006; Thorson et al., 1997. ومن الملاحظ في هاتين الدراستين،أن كل الكويتيين مسلمون، وأن الغالبية العظمى من المصريين مسلمون، ونعرض في الفقرة الآتية، علاقة الإسلام بالانتحار.

الإسلام والانتحار:

تثير معدلات الانتحار المنخفضة في البلاد الإسلامية تأملات شتى، وتبدو الأدلة مقنعة على أن الرابطة بين الإسلام وقلة عدد المنتحرين، تعتمد على جانب من الجوانب الأساسية في العقيدة الإسلامية.

يعتقد المسلم الحق ويؤمن، أنه عبد لله سبحانه وتعالى، وأن الله هو الخالق الرزاق ذو القوة المتين، وهو سبحانه وتعالى الذي يحدد أعمار عباده وآجالهم، ومن ثم؛ فإن المسلم ليس حرًا في إنهاء حياته، عندما يريد ذلك، في الزمان والمكان الذي يحدده. ومن حرص الإسلام على حماية النفوس، أنه هدد من يستحلها بأشد العقوبة، فيقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء: ٩٣). وتقرر هذه الآية، أن عقوبة القاتل في الآخرة، العذاب الأليم، والخلود المقيم في جهنم، والغضب واللعنة، والطرد من رحمة الله، ذلك أن القتل هدم لبناء أراده الله، وسلب لحياة المجني عليه، واعتداء على عصبته الذين يعتزون بوجوده، وينتفعون به، ويحرمون بفقده العون. ويستوي في التحريم قتل المسلم والذمي وقاتل نفسه ... وثبت في الحديث أن «من قتل نفسه بشيء عُذب به يوم القيامة». ومن أبلغ ما يتصور في التشنيع بالقتلة -بالإضافة إلى ما سبق- أن الإسلام اعتبر القاتل لفرد من الأفراد، كالقاتل للأفراد جميعًا، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة: 32) Sabeq, 1966: 7-8، ويؤدي بنا ذلك إلى معالجة موجزة لحقوق الإنسان في الإسلام.

أهم حقوق الإنسان في الإسلام:

يذكر السيد سابق Sabeq, 1966: 8 أن من أساسيات الإسلام، المحافظة على النفس، فقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان: خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، وجعله خليفة عنه، وزوده بالقوى والمواهب ليسود الأرض، وليصل إلى أقصى ما قدر له من كمال مادي، وارتقاء روحي. ولا يمكن أن يحقق الإنسان أهدافه، ويبلغ غايته، إلا إذا توافرت له جميع عناصر النمو، وأخذ حقوقه كاملة، وفي طليعة هذه الحقوق التي ضمنها الإسلام، حق الحياة، وحق التملك، وحق صيانة العرض، وحق الحرية، وحق المساواة، وحق التعلم.

وهذه الحقوق واجبة للإنسان من حيث هو إنسان، بقطع النظر عن لونه أو دينه أو جنسه أو وطنه أو مركزه الاجتماعي. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (سورة الإسراء: ٧٠). وعلى ضوء هذه الحقوق ننتقل إلى بيان موجز لمفهوم الإسلام عن السلام.

السلام في الإسلام:

السلام مبدأ من المبادئ الأساسية،التي عمق الإسلام جذورها في نفوس المسلمين، فأصبحت جزءًا من كيانهم، وعقيدة من عقائدهم. لقد دعا

الإسلام - منذ مطلع فجره- إلى السلام، ووضع الخطة الرشيدة التي تبلغ بالإنسانية إليه. إن الإسلام يحب الحياة، ويقدسها، ويحبب الناس فيها، وهو لذلك يحررهم من الخوف، ويرسم الطريقة المثلى، لتعيش الإنسانية متجهة إلى غاياتها من الرقي والتقدم، وهي مظللة بظلال الأمن الوارفة. ولفظ الإسلام - الذي هو عنوان هذا الدين- مأخوذ من مادة السلام، لأن السلام والإسلام يلتقيان في توفير الطمأنينة، والأمن، والسكينة.

وربُّ هذا الدين من أسمائه "السلام"، لأنه يؤمِّنُ الناس بما شرع من مبادئ، وبما رسم من خطط ومناهج. وحامل هذه الرسالة هو حامل راية السلام، لأنه يحمل إلى البشرية الهدى، والنور، والخير، والرشاد. وتحية المسلمين التي تؤلف القلوب وتقوي الصِّلات، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان: هي السلام. وأولى الناس بالله وأقربهم إليه من بدأهم بالسلام. وبذل السلام للعالم وإفشاؤه جزء من الإيمان، وقد جعل الله تحية المسلمين بهذا اللفظ، للإشعار بأن دينهم دين السلام والأمان، وهم أهل السلم ومحبو السلام. وتحية الله للمؤمنين تحية سلام: (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) (سورة الأحزاب: ٤٤).

وتحية الملائكة للبشر في الجنة سلام: (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) (سورة الرعد: ٢٣). ومستقر الصالحين دار الأمن والسلام: (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ) (سورة يونس: ٢٥)، (لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ) (سورة الأنعام: ١٢٧). وأهل الجنة لا يسمعون من القول ولا يتحدثون بلغة غير لغة السلام: (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) (سورة الواقعة: ٢٥-٢٦).

وكثرة تكرار هذا اللفظ -السلام- على هذا النحو، مع إحاطته بالجو الديني النفسي، من شأنه أن يوقظ الحواس جميعها، ويوجه الأفكار والأنظار إلى المبدأ السامي العظيم.

الإسلام دين المثل العليا:

الإسلام يوجب العدل ويحرم الظلم، ويجعل من تعاليمه السامية وقيمه الرفيعة وعلى رأسها: المودة، والرحمة، والتعاون، والإيثار، والتضحية، وإنكار الذات، ما يلطف الحياة ويعطف القلوب، ويؤاخي بين الإنسان وأخيه الإنسان. وهو بعد ذلك كله يحترم العقل الإنساني، ويقدر الفكر البشري، ويجعل العقل والفكر وسيلتين من وسائل التفاهم والإقناع.

والإسلام لا يرغم أحدًا على عقيدة معينة، ولا يكره إنسانًا على نظرية خاصة بالكون أو الطبيعة أو الإنسان، وحتى في قضايا الدين يقرر أنه لا إكراه في الدين، وأن وسيلته هي استعمال العقل والفكر والنظر، فيما خلق الله من أشياء. ويقول تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (سورة البقرة: ٢٥٦).

العلاقة بين المسلمين وغيرهم:

علاقة المسلمين بغيرهم علاقة تعارف، وتعاون، وبر، وعدل. يقول سبحانه في التعارف المفضي إلى التعاون:)يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ((سورة الحجرات: ١٣). ويقول في الوصاية بالبر والعدل: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (سورة الممتحنة: ٨). ومن مقتضيات هذه العلاقة تبادل المصالح، واطراد المنافع، وتقوية الصلات الإنسانية :Sabeq, 1966 67-68, 72 .

الإسلام دين السلام لا الاستسلام:

أوضحت الفقرات السابقة، موقع السلام في الإسلام، وكيف أن الإسلام دين المحبة والسلام، سلام بين المرء ونفسه، وبينه وأسرته ومجتمعه، سلام بينه وبين أصحاب الديانات الأخرى، سلام بينه وبين المجتمع الإنساني بأسره. وعلى الرغم من أهمية مفهوم السلام في الإسلام، فإن هذا الدين الحنيف ليس دين الاستسلام، ولا يرضى للإنسان بالظلم ولا المهانة ولا الاستعباد. فقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان حرًا. وفي حادث شهير في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، تسابق ابن عمرو بن العاص والي مصر، مع شخص مسيحي، فسبق الأخير، فضربه ابن الوالي، فشكى المسيحي إلى الخليفة عمر بن الخطاب في المدينة المنورة ، فاستدعى عمرو بن العاص وابنه من مصر، وطلب من الشخص المسيحي أن يضرب ابن الوالي كما ضربه، وقال قولته الشهيرة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟".

قد يقول قائل: إن هذه هي مبادئ الإسلام، وإن التطبيق العملي من جانب المسلمين يختلف عن ذلك. وهذا صحيح للأسف في بعض الحالات، وكيف لدين قيم أن يضبط سلوك كل من ينتمي إليه؟ وهذه ظاهرة موجودة في كل دين سماوي وغير سماوي، وحتى بين من لا يعترفون بالأديان، ونقصد المفارقة بين المبادئ والتطبيقات.

الإسلام إذن دين سلام ومحبة، ولكنه ليس دين استسلام وذلة. (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ) (سورة النساء: ١٤٨). ولا يرضى الله سبحانه وتعالى الظلم بين العباد (وجاء في الحديث القدسي: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا). (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (سورة الحج: ٣٩). وأكبر ظلم يعيشه المسلمون اليوم؛ هو اغتصاب فلسطين، واحتلال بيت المقدس، وطرد الفلسطينيين من ديارهم، واحتلال أرضهم.

نشأة إسرائيل: دولة الإرهاب وإرهاب الدولة:

تصور أنك تعيش آمنًا مطمئنًا في بلدك، ورأيت حلم ليلة صيف كهذا: رأيت فيما يرى النائم، أن عصابات مسلحة قوية، قد هاجمتك ودمرت مسكنك، وقتلت بعضًا من أهلك، وفعلت الشيء نفسه مع جيرانك، في مدينتك أو قريتك،وكررت الأمر ذاته في مدن وقرى أخرى، وأجبرتك هذه العصابة المسلحة على ترك كل شيء، والفرار بنفسك بعيدًا. عندئذ وجدت نفسك شريدًا طريدًا، لا مأوى، لا مصدر رزق، لا مال، لا أهل، لا وطن، لا أمل... إلخ.

لا شك أن ذلك من وجهة نظرك يعد كابوسًا مرعبًا وليس حلمًا، ولكنه في الواقع -من ناحية أخرى- حقيقة ما حدث فعلاً ضد السكان الأصليين المسلمين والمسيحيين في فلسطين، في عام ١٩٤٧ وما قبله، من عصابات الهجانة والأرجون الصهيونية المسلحة وغيرها، التي كان من بين أعضائها من أصبحوا رؤساء لإسرائيل، الذين ارتكبوا مذابح دموية قتلت من الفلسطينيين من قتلت في هذا الوقت، وجعلت من بقي على قيد الحياة، يهرب من هذا الأتون المستعر، وأصبح بلا وطن ولا مأوى، فاقدًا كل ما يملك، وبعد مرور فترة صعبة، أصبح يعيش في الشتات، مواطنًا من الدرجة الثانية في إسرائيل، أو في مخيم، أو لاجئًا إلى دولة عربية، أو مهاجرًا إلى إحدى الدول الغربية، وعاش على الهامش بوصفه مواطنًا من الدرجة الثانية أو ما بعدها، وذلك بعد أن كان آمنًا مطمئنًا في وطنه، في الوقت الذي يدرك فيه تمام الإدراك، أن وطنه قد اغتصب، وأن من ينعم به هم مغتصبوه.

لقد قامت دولة إسرائيل عام 1948، على بحر من الدم الفلسطيني، وحدثت مجازر بشعة رافقت قيام الدولة العبرية منذ نشأتها، واتخذ الصهاينة قبل قيام إسرائيل وحتى الآن: الإرهاب سياسة أساسية لهم، ويبدو جليًا أن هدفهم هو قتل كل من هو فلسطيني، من الأطفال والنساء والشيوخ والشباب، ونفذت إسرائيل إبان الانتفاضة الثانية مجازر يومية بدم بارد.

من هنا بدأت مشاعر اليأس والعجز والاكتئاب، وولدت هذه المشاعر السلبية، الإحساس بالظلم، لدى هؤلاء المطرودين من ديارهم ووطنهم، في سبيل نشأة دولة إسرائيل. عند هذه النقطة تكونت النواة الأولى التي تربت فيها العمليات الاستشهادية ونشأت.

ويجب أن نلاحظ أن الغالبية العظمى من الفلسطينيين الآن، يعيشون تحت خط الفقر بدرجات كثيرة، ليس لهم مصدر رزق ثابت، وكان الواحد منهم - قبل الانتفاضة الثانية - ينتظر أن تتعطف عليه إسرائيل، وتصرح له بالدخول إليها، ليقوم بعمل مؤقت، بوصفه عاملاً أجيرًا في أحد المنشآت الصهيونية في وطنه السليب. ومن سخرية الحياة أن بعض هؤلاء الفلسطينيين، كان يعمل في بناء المستوطنات، التي تكرس الاحتلال والاستيطان. وهل أمامه حل آخر؟

وبعد الانتفاضة لم تعد إسرائيل تسمح لهم بالعمل فيها، واستقدمت عمالة آسيوية بدلاً منهم، وتشير بعض الصحف، إلى أن معدل البطالة بين الفلسطينيين، في الأرض المحتلة بعد عام ١٩٦٧، أصبح ٦٢٪ بعد الانتفاضة.

تخطيط إسرائيل لحدودها: من النيل إلى الفرات:

لم تكتف إسرائيل بما حصلت عليه ظلمًا وعدوانًا من أرض فلسطين في عام ١٩٤٨، فضمت إليها أراضي من مصر وسوريا والأردن ولبنان، بعد عدوان عام ١٩٦٧، لاحظ أن الشعار المكتوب على الكنيست يشير بوضوح، إلى أن "حدود إسرائيل هي من النيل إلى الفرات"، أي من مصر إلى العراق، وعندما سئل أحد رؤسائها وهو بن جوريون: "أين حدود إسرائيل؟ أجاب: عندما يقف آخر جندي إسرائيلي". وقد اتبعت استراتيجية توسعية دون كلل، فزرعت المستوطنات بين البلدات الفلسطينية، في المناطق المحتلة بعد عام ١٩٦٧، ولذلك يذكر "كوفي عنان" سكرتير عام الأمم المتحدة، أن "أساس المشكلة الفلسطينية الإسرائيلية، هو بناء المستوطنات"، ولكننا نقول إن أساس هذه المشكلة - قبل ذلك وبالإضافة إليه - هو اغتصاب الأرض، وتشريد المواطن الفلسطيني، والتضييق عليه، ولم تنسحب إسرائيل من الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧، وتحقق السلام لمواطنيها، بل أعادت احتلالها، ومارست إرهاب الدولة ضد المقيمين فيها، وفي الوقت نفسه لم تعدهم مواطنين فيها، وهل توجد دولة تقتل مواطنيها؟ ولم تتركهم دون انتقام، فقد جاء في جريدة الوطن الكويتية (٢٠/ ٦/ ٢٠٠٢، ص ٢٢) أن المستوطنين اليهود في بيت لحم، قاموا - بعد عملية استشهادية- بحرق بستان زيتون يضم ألف شجرة، ويمتد على خمسة هكتارات، يملكه فلسطيني.

أكذوبة محادثات السلام:

قد يقول قائل: إن محادثات السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين كان فيها بصيص من أمل، لقد استمرت المفاوضات أكثر من عشر سنوات، ووضعت مبادئ وعقدت اتفاقات في مدريد وأوسلو، وتفاوض الجانبان دون أن يتفقا، والسبب كما يراه بعض المراقبين، أن أطماع إسرائيل ليس لها حدود: إنها تريد الأرض والسلام معًا، وليس الأرض مقابل السلام، كما نصت قرارات الأمم المتحدة، ثم إنها - من منظور سياسة الأمر الواقع

وغطرسة القوة- تضع يدها على الأرض، وتملك أعظم ترسانة سلاح في الشرق الأوسط، بما فيها أسلحة الدمار الشامل، وتعتقد أن هذه القوة الغاشمة، ستحقق الأمن لمواطنيها، فما الذي يجبرها إذن على السلام؟

دوافع العمليات الاستشهادية:

كان لدى الفلسطينيين في أوائل التسعينيات من القرن العشرين، بصيص من الأمل في إنشاء دولة مستقلة، تضم الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧، وتحددت مناطق للحكم الذاتي، تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية، ولم تحدث عمليات استشهادية بين العامين ١٩٩٦-٢٠٠٠ تقريبًا. ولما لم يصل الفلسطينيون إلى حل مع المفاوض الإسرائيلي العنيد، ومارست إسرائيل إرهاب الدولة، وقامت بعدوانها الوحشي ضد الفلسطينيين وسلطتهم، بدأت الدائرة الجهنمية للعنف، الذي لا يولد سوى العنف. وتضافرت العوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية السيئة، مع اليأس من حل المشكلة، وتفاعلت هذه العوامل جميعًا في نفوس بعض المواطنين الفلسطينيين، فزادت معدلات الاستشهاد، وواجه هذا الفلسطيني الذي لا يملك سوى جسده، أعتى ترسانة حربية، تملك كل وسائل الدمار الشامل وغير الشامل، وتستخدم كل الوسائل المحرمة دوليًا.

ومن دوافع العمليات الاستشهادية أيضًا لدى القائمين بها: الشعور بالظلم، وتساوي الحياة مع الموت، وشعور الشخص بأنه لا يوجد ما يخاف عليه، فضلاً عما يقوم به الجيش الإسرائيلي من القتل والسجن والقهر والعنف والاضطهاد وتدمير البيوت. ويفسر "أمنون شحاك" رئيس الأركان الإسرائيلي السابق، ما يسميه "انتحار الفلسطينيين" بأن "إذلال الاحتلال لهم يوميًا هو الذي يخلق هذه الحالة". وفي حديث عن دوافع العمليات الاستشهادية كذلك، يذكر لويس فرقان: "أولى من إدانة الاستشهاديين أن ندين الظروف التي قادتهم إلى هذا الفعل، وهي ظروف الاحتلال وما يعانون". وفي التحليل النهائي فإن العنف يولد العنف.

يمكننا إذن أن نوجز دوافع العمليات الاستشهادية فيما يلي:

١- فشل الحلول السلمية السياسية بعد عشر سنوات من المفاوضات.

٢- لم ينصف النظام العالمي والمنظمات الدولية الفلسطيني الذي اغتصبت أرضه.

٣- ضيق سبل الكفاح المسلح الأخرى، والتفوق العسكري الشديد لآلة الحرب الإسرائيلية، وعدم توازن الردع بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

٤- الحصار الإسرائيلي الخانق للفلسطينيين، بما فيه التجويع، والاغتيالات، والتوغل العسكري، والعقاب الجماعي، والاعتقالات، ومنع وصول الإغاثات الطبية في أثناء الاجتياح العسكري، والمعاملة غير الإنسانية التي يتعرض لها الفلسطينيون عند المعابر وغيرها.

٥- تزايد القهر والاضطهاد من الإسرائيلي المحتل.

٦- الشعور بالظلم.

٧- الإيمان بأن الجهاد فرض عين، للدفاع عن الوطن وحماية حرماته (من قتل دون دمه أو ماله أو عرضه فهو شهيد).

٨- الإيمان بمكانة الاستشهاد في سبيل الله، فجزاؤه الظفر بإحدى الحسنيين: فإما النصر وإما الجنة.

٩- يقين الاستشهادي بأن روحه أقل من فداء الوطن، وحماية المقدسات الدينية وبخاصة المسجد الأقصى (لاحظ أن الانتفاضة الحالية

بدأت بعد انتهاك "شارون" حرمة المسجد الأقصى).

الظاهرة الاستشهادية:

يذكر خالد مشعل، رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، إحدى فصائل المقاومة في فلسطين، في مقابلة مع قناة الجزيرة، في برنامج حوار مفتوح في ٢/٧/ ٢٠٠٢ تحت عنوان الظاهرة الاستشهادية: الاستشهاديون نتاج الشعب الفلسطيني، وهم الذين عرَضوا أنفسهم على الأجنحة العسكرية الفلسطينية، فمنهم فتيات وأطفال وشبان من مختلف الأعمار، والدافع لديهم ذاتي، ولم يقم أحد بتجنيدهم أو تضليلهم. ولقد اختارت حركات المقاومة في فلسطين - ومنها حركة حماس، طريق المقاومة لاقتناعها بأن هذا هو الطريق الوحيد لتحرير الأرض، والتخلص من الاحتلال، بعد ثبوت فشل التسوية، ونظرًا للعدوان الشرس على الفلسطينيين.

ويضيف أن الجهاد والمقاومة من الناحية الدينية هو خيار هذه الأمة، وقد شرعه الله سبحانه وتعالى (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (سورة الحج: ٣٩)، شرعه الله من أجل الدفاع عن أعراضنا وديارنا ومقدساتنا وأموالنا. كما أن العمليات الاستشهادية شكل من أشكال المقاومة، بل هي من أعظمها وأكثرها تأثيرًا، وغالبية علماء الأمة أفتوا بجوازها، واعتبروها من خير أعمال الجهاد والمقاومة.

وتصنف دوافع الاستشهاديين إلى ثلاثة: الدافع الديني والرغبة في الظفر بالجنة، والدافع الوطني، ففلسطين هي أرضهم، وأنه لا بد أن يحررها أبناؤها، وأن يخلصوها من الاحتلال البغيض، وكل إنسان يعز عليه وطنه الذي نشأ فيه وتربى. وأما الدافع الثالث فهو دافع إنساني (نفسي)، ففي قصص هؤلاء الاستشهاديين تأثر بمواكب الاستشهاديين من قبلهم، وتأثر بجرائم العدو، إنهم يرون تدمير البيوت على أصحابها، ويرون قتل الأطفال، والظلم والمهانة كل يوم. ورسالة الاستشهاديين - وإن كانت تأتي عبر الموت، هدفها الحياة للأجيال التي تأتي من بعدهم. إن هؤلاء الاستشهاديين يردون على الغزاة الصهاينة، الذين احتلوا أرضهم، ودنسوا مقدساتهم، وطردوا نصف الشعب الفلسطيني إلى الخارج. فالاستشهادي يقتل غازيًا محتلاً، استولى على أرضه، وهدم بيته، وشرده وألجأه إلى المخيمات أو الغربة. ولا يعقل أن تلام الضحية. ومن حق الشعوب المحتلة في كل الشرائع، أن تدافع عن نفسها، والعمليات الاستشهادية أحد صور الدفاع عن النفس.

سلوك الاستشهاد:

إن من أخطر الجوانب النفسية في هذا المجال، هو ما يمكن أن نسميه "سلوك الاستشهاد"، الذي نشأ وترعرع لدى قطاع غير قليل من الفلسطينيين، واعتمادًا على النسق السلوكي المعرفي، فإن المشاعر والانفعالات الجياشة تعتمل في نفس القائم بالعملية الاستشهادية أو من يفكر فيها، وذلك بناء على تنظيم معرفي،يعتمد على معتقد محدد، أو فكرة خاصة، تتأثر بكل ما ذكرناه من متغيرات نفسية واجتماعية ودينية واقتصادية، تؤدي جميعًا إلى هذا السلوك. ونلاحظ هنا بوضوح، التأثير الكبير للاعتقاد الديني بمشروعية هذا العمل، وبالجزاء الذي ينتظر القائم به، فمصيره النصر أو الشهادة، ثم جنة الخلد في النهاية، ويجعله ذلك يؤثر وطنه بروحه، حتى أصبحت روحه رخيصة بالنسبة إلى وطنه، إذ الهدف أغلى من الروح والحرص على الحياة.

وما العمليات الاستشهادية إلا إعلان لرفض العيش في عالم الذل والهزيمة، وهي ليست إرهابًا على الإطلاق، من وجهة نظر القائمين بها، إذ

يعتقدون أن الجهاد ضد المحتل أمر مشروع، وأن الحق لا يضيع ما دام وراءه مجاهدون يضحون من أجله بأرواحهم، ويشاركهم هذا الاعتقاد كثيرون.

وفي هذا السياق، ذكرت "شيري بلير" زوجة رئيس وزراء بريطانيا: "ما دام هؤلاء الشبان الصغار، يشعرون بأنه لا أمل لهم سوى أن يفجروا أنفسهم، فلن يتحقق أي تقدم". كما صرح "جاكسترو" وزير خارجية بريطانيا لصحيفة "تايمز": إنه عندما يضحي الشبان الفلسطينيون الذين ينفذون عمليات انتحارية بحياتهم، فإنه يمكننا أن نشعر بالشفقة عليهم، لابد أنهم قد يئسوا فعلاً وضللوا حتى وصلوا إلى هذه المرحلة" (الوطن، ٢٠/ ٦/ ٢٠٢٢، ص ٢٢). وأضافت الصحيفة، أن كلا من "شيري بلير" و"جاك سترو"، قد تراجعا عن هذه التصريحات فيما بعد. ونعلق على هذا التراجع بقولنا: هذا هو العالم الظالم الذي يقف مع المعتدي ويعجب به، ويكره الضعيف المعتدى عليه، ويرى أنه سبب المشكلة. والملاحظ أنه عندما يصدر عن شخص مسؤول -في العالم الأول- تعليق متعاطف مع الفلسطينيين في لحظة صدق، فإنه ينكص على عقبيه، ويسعى إلى تعديله بعد أن ينطق به. ولا ننسى أن هذين السابق ذكرهما، مواطنين في الدولة التي أصدرت وعد "بلفور" المشؤوم عام ١٩١٧، ووعدت اليهود بوطن قومي في فلسطين، وكما كنا نقرأ ونحن تلاميذ صغار: "إنه وعد من لا يملك لمن لا يستحق"!.

ثقافة المقاومة:

في ظل هذا الجو المأساوي الظالم، يؤدي الضغط إلى الانفجار، وينجم عن مزيد من الضغط، انفجار وتفجير للشخص الذي يحس بالظلم في وجه عدوه، ويمهد لذلك بطبيعة الحال، ثقافة الفعل ورد الفعل، أو ثقافة رفض الظلم، أو ثقافة المقاومة عن طريق الاستشهاد.

واعتمادًا على المبدأ القائل بأن "العنف يولد العنف"، فإن المتوقع للأسف أن يؤدي تصعيد إسرائيل لعدوانها على الفلسطينيين، إلى مزيد من العمليات الاستشهادية على شكل موجات تزيد وتنقص، في دائرة مغلقة لا يدري أين طرفاها، حتى تتولد ما يمكن تسميته "ثقافة المقاومة"، التي بدأت في الظهور فعلاً. ودليل ذلك أن الفلسطينية "نعيمة العابد" ودعت ابنها الاستشهادي للموت بابتسامة، وأكدت أنها لن تفقده لأن مصيره الجنة، وأضافت هذه الأم التي كان يفترض أن تعبر عن مشاعر الفقد لدى الأم الثكلى: إنها تبعث للمحتلين والقتلة الإسرائيليين برسالة مفادها؛ أن هذه أرض فلسطينية، وأن أبناء فلسطين ليسوا أغلى من هذه الأرض، وأن دماءهم ستحرر أرض فلسطين. وقالت "نعيمة" لرويترز: "رأيت ابني وجلست معه لساعات، قلت له لا ترتعد أمام العدو، ولا تهدر الرصاص. رسالتي للأمهات الإسرائيليات: لا ترسلن أبناءكن للموت في معركة خاسرة" (الوطن، ١٧ يونيو ٢٠٠٢، ص ٣٠).

وفي مقابلة أجرتها قناة الجزيرة في ٢/ ٧/ ٢٠٠٢، لأم "نضال" التي ودعت ابنها وهي تعلم أنه سيقوم بعملية استشهادية، قالت: إن أولادنا أغلى من أرواحنا، ولكن الله سبحانه وتعالى أغلى من كل غال، وقد علم ابني أن كل الخير في هذه التضحية، فقدمت له الخير لأنه غال. وهناك الهدف الأسمى؛ هناك أرض محتلة، وأعداء، وهمجية، وقد مارس المحتل ضدنا كل أنواع الظلم في هذا الوطن الغالي، فكيف نسكت ونتخاذل؟

وذكرت إحدى السيدات اللاتي اتصلن بالبرنامج نفسه، في قناة الجزيرة في ٢٠٠٢/٧/٢، إنها ناشطة في مجال العمل الدعوي والاجتماعي في مخيم برج البراجنة، وحاصلة على ليسانس الحقوق، وهي أم لثلاثة أطفال ذكور وإناث (أعمارهم من

٣- ١٠ سنوات)، وأنها تنمي حب الاستشهاد في قلوب أطفالها، وتصحبهم في جميع المسيرات والاعتصامات، ليعيشوا قضيتهم الوطنية والدينية، وتفرض عليهم في بعض الأحيان،رؤية الأخبار وبعض مشاهد المجازر التي يرتكبها العدو الصهيوني، ليشاهدوا ممارسات هذا العدو الغاصب، مع أهلنا في فلسطين، كي يكون الرد على قدر هذا العدوان ضدنا.

ويجب أن نذكر شيئًا عن المكان الذي تقيم فيه هذه السيدة، وهو مخيم برج البراجنة الموجود في لبنان، ويقيم فيه الفلسطينيون المطرودين من أرضهم وبلادهم، بعد اغتصاب الصهاينة لأرض فلسطين.

ولقد رأيت بعيني رأسي في ١٠/ ٧/ ٢٠٠٢ في إحدى القنوات الفضائية اللبنانية LBC مقابلة مع أسرة فلسطينية تضم والدين وطفلتين، وإحدى الطفلتين لم تتجاوز الإثني عشر ربيعًا، أخبرت والدها أنها "سوف تستشهد، لتقتل الإسرائيليين الذين يقتلون أهلنا ويدمرون بيوتهم". هل من دليل أكثر من ذلك إقناعًا على أن ثقافة المقاومة لم تبدأ فحسب، بل قد تبلورت فعلاً، وحتى لدى بعض الأطفال. إن هذه الطفلة التي لم يزد عمرها عن اثني عشر عامًا، كان المتوقع منها في أي مكان آمن آخر في هذا العالم -وهي في سنيها الخضر- أن تفكر في ألعابها وزميلاتها وهواياتها... وغير ذلك مما تقوم به قريناتها في العطلة الصيفية.

السؤال المهم هنا: هل هناك رأي فصل يحدد مشروعية هذه العمليات الاستشهادية أو يحرمها؟ بعد استقراء مستفيض لآراء عدد من المختصين في مجالات عدة، فضلاً عما يكتب ويذاع في وسائل الإعلام العربية، يمكن القول بأن هناك رأيين: شرعي وسياسي، نفصلهما فيما يلي.

الرأي الشرعي في العمليات الاستشهادية:

الرأي الشرعي الإسلامي في العمليات الاستشهادية - كما يذكر الأستاذ الدكتور أبو اليزيد العجمي (اتصال شخصي في ٢٦/ ٦/ ٢٠٠٢) أن القائم بها شهيد، وأن فداء الوطن بالروح أمر مشروع تمامًا، وأن الاتفاق على ذلك يبلغ مائة في المائة. ويضيف كاتب هذه السطور، أن هذا الاستنتاج قد تأكد من كثير من علماء الشريعة الإسلامية ومنهم: شيخ الأزهر في مصر، وأ.د. القرضاوي في قطر، أ.د. عجيل النشمي، أ.د. جاسم بن محمد الياسين في الكويت. وقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم "أن من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد". ومن البدهي أن الوطن لا يندرج تحت المال والدم والأهل فحسب، ولكنه يأتي قبلها جميعًا، لأن الوطن هو الذي يستوعب الإنسان والأهل والمال. اقرأ قوله سبحانه وتعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (سورة الحج: ٣٩، ٤٠).

ويذكر د. محمد صالح أستاذ الفلسفة الإسلامية (الغرسة ٢٥، ص ص ٢٨- ٢٩) أن أعلى ضروب الجهاد الذود عن الأوطان، والدفاع عن كرامتها ضد هجمات الطامعين، والحرص كل الحرص على التراب الوطني. ويضيف أن فلسفة الشهادة في الإسلام، تعتمد على خمسة مبادئ هي: (١) الجهاد فريضة واجبة، و(٢) الإيمان بحتمية الموت، و(٣) الإيمان بأن الشهادة عمل إيجابي لا سلبي، وفي هذا الجانب تعد الشهادة مختلفة عن الانتحار، و(٤) تفسير الموت: الموت للأجساد، والروح

الصالحة تقابل ربها الكريم، والشهداء أحياء في الجنة فرحون يرزقون، و(٥) الشهيد نموذج للإنسان المسلم الكامل.

وجهة نظر سياسية:

وأما الرأي الآخر فيرى أصحابه أن العمليات الاستشهادية مسوغة تمامًا، ولكن عواقبها ضارة بالفلسطينيين، فيذكر عايد المانع في جريدة الوطن (٢٠٠٢، ص ٣٧) أن من حق الفلسطينيين أن يقاوموا الاحتلال الصهيوني لبلادهم، فهذا حق مطلق ضمنته الشرائع السماوية والوضعية، لكل الشعوب التي تصبو إلى الحرية وتقرير المصير والاستقلال الوطني. ولما كان حصول الفلسطينيين على حقوقهم الوطنية وحريتهم السياسية غير ممكن بالوسائل السلمية، بسبب طغيان القوة وفكر التطرف الصهيوني، فإن لجوء الفلسطينيين إلى العنف، إنما هو لجوء اضطراري. ولو كانت إسرائيل حريصة على السلام،لما انتظرت كل هذه العقود، وهي جاثمة على صدور الفلسطينيين وأراضيهم، في الضفة الغربية وقطاع غزة، على الرغم من أن احتلال هذه الأرض في ٥ يونيو ١٩٦٧، لم يكن له ما يبرره، وكان من مصلحة السلام الإقليمي، أن تنسحب إسرائيل منها.

وخلاصة هذا الرأي: إن العمليات الاستشهادية مشروعة، ولكن شرعيتها لا تنفي ضررها، إذ إن ردود الفعل الصهيوني على تلك العمليات، أكثر قتلاً لأرواح الفلسطينيين، وأكثر تدميرًا لممتلكاتهم، من الآثار التي تحدثها تلك العمليات الفدائية، على أرواح الدولة الصهيونية وممتلكاتها، إذًا ليس كل عمل استشهادي مفيدًا.

واعتمادًا على هذا الاستنتاج ومستقلاً عنه، قامت ١٤٠ شخصية فلسطينية، بالتوقيع على عريضة تطالب بوقف العمليات الاستشهادية، لأنها تكرس الحقد والكراهية بين الشعبين الإسرائيلي والفلسطيني (جريدة الوطن، ٢١/ ٦/ ٢٠٠٢، ص٢٣).

ويرد على ذلك آخرون بقولهم: إن وقف العمليات الاستشهادية، لن يؤدي إلى انسحاب إسرائيل من الأراضي الفلسطينية، والعدو الصهيوني لا يحتاج إلى مبرر، لأفعاله القمعية ضد الفلسطينيين، ولا يهمه المجتمع الدولي في كثير، وهل كان الصهاينة في حاجة إلى مبرر لارتكاب جرائمهم في مذابح دير ياسين، أو صابرا وشاتيلا، أو قانا أو جنين أو غزة؟

بقيت كلمة أخيرة، هي أن إسرائيل بكل قواتها العسكرية، لم تستطع أن توقف العمليات الاستشهادية، نظرًا للدوافع القوية المتشابكة التي ذكرناها، ونظرًا لأنها لن تستطيع -بكل أجهزة الاستخبارات- أن تتنبأ بوقوع العمليات الاستشهادية، لأنه -كما يذكر بعض العسكريين المخضرمين- إن صاحب العملية الاستشهادية مدفوع بدوافع ذاتية، وليست بأوامر عسكرية، الأمر الذي يجعل العمليات الاستشهادية، تتصف بالمفاجأة التامة والمباغتة.

وما أظن أن العمليات الاستشهادية تتوقف،ما دامت أسباب الظلم قائمة، لذا نهيب بالمجتمع الدولي أن يسعى إلى تحقيق العدل، لكي ينعم العالم بالسلام الذي هو سمة الأديان كلها،وخاتمها الإسلام الحنيف.

شكر وعرفان:

أشكر أستاذي وصديقي أ.د. أبو اليزيد العجمي، رئيس قسم العقيدة والدعوة بكلية الشريعة، جامعة الكويت، على قراءته النقدية للمخطوط، وعلى إضافاته القيمة له.

ماذا بعد؟

بعد نشر هذا المقال في نسخته الأصلية، في عام ٢٠٠٤، وتنفيذًا لحق الرد، نشر "إسرائيل أورباخ"،

أستاذ علم النفس في جامعة تل أبيب - وكان أحد المشاركين في العدد المنشور فيه مقال كاتب هذه السطور، تعقيبًا على مقالي، شكك فيه في دفن الفلسطينيين أحياء، واستخدام أجسادهم، قطع غيار للجرحى الإسرائيليين، وذكر أن الإسرائيليين عرضوا على ياسر عرفات حلاً سلميًا، ولكنه لم يوافق. ولما استفسرت عن ذلك من زميلي أ.د. السيد محمد سليم؛ أستاذ العلوم السياسية، رحمه الله، ذكر أن ذلك لم يحدث، وأن المفاوض الإسرائيلي بارع في المراوغة والتسويف وإضاعة الوقت.

الموقف الراهن:

في ٧ أكتوبر ٢٠٢٣، بدأت المقاومة الفلسطينية بالهجوم العنيف على عدد من المستوطنات اليهودية في قطاع غزة، وأسرت عددًا من الإسرائيليين والأجانب، واحتفظت بهم في الأنفاق. وهو ما يشير إلى حسن تخطيط المقاومة الفلسطينية، وفشل المخابرات الإسرائيلية. وكان لهجوم المقاومة الفلسطينية وقع الصدمة على الكيان الإسرائيلي ومن والاه.

ويركز هذا الكيان، وكذلك الحكومة الأمريكية، ومعظم الحكومات الأوروبية، على أن المقاومة الفلسطينية هي البادئة بالعدوان، ويتغافلون عن قرابة خمسة وسبعين عامًا من الاحتلال، والطرد، والتهجير، والاعتقال، والقتل، وهدم البيوت، وتجريف الأراضي، والتطهير العرقي، الذي قام به الكيان الإسرائيلي، ولكنها المعايير المزدوجة، والكيل بمكيالين، الذي يقلب الموازين.

وكان رد فعل الكيان الإسرائيلي المارق غير الأخلاقي، أن قام بتدمير غزة، واستهداف كل من هو فلسطيني، وتدمير البيوت على ساكنيها، وتدمير المستشفيات، والمساجد، والكنائس. هذا فضلاً عن قطع الماء والكهرباء والغاز، ومنع دخول المساعدات الإنسانية والطبية، وهو ما يرقى إلى جرائم ضد الإنسانية.

وقد رأيت «فيديو» لجنود إسرائيليين، يقتادون الشبان الفلسطينيين وهم معصوبو العينين، ويداهما مكبلة خلف الظهر، ثم يقوم الجندي -الذي تجرد من الإنسانية- بدفع الفلسطيني في حفرة عميقة، ثم يطلق عليه الرصاص!! أي إجرام هذا؟ وخرق لكل القوانين الدولية والإنسانية.

وامتد العدوان الإسرائيلي البربري، على منطقة الضفة الغربية، واتبعوا سياسة الأرض المحروقة: التدمير، والقتل، والاعتقال، ومنع وصول أساسيات الحياة للفلسطينيين.

إن قوى الشر في العالم كثيرة، فيحارب مع جنود الكيان الإسرائيلي، جنود وضباط من عدة دول، أهمها الولايات المتحدة، وإنجلترا، وفرنسا، وألمانيا ...، وغيرهم من الدول الاستعمارية. وفي المقابل، فقد سدد الله رمى المقاومة الفلسطينية، ووفقها، وأوقعت عددًا كبيرًا من الجنود والضباط المجرمين بين قتيل وجريح.

إن عقيدة المقاومة الفلسطينية وهدفها، هو أنها تقوم بتحرير أرضها المحتلة، وعقيدة الكيان الصهيوني اغتصاب ما ليس من حقه، والله غالب على أمره، والنصر لأصحاب الحق بمشيئة الله.

المراجع الأجنبية

- Abdel-Khalek, A. M. (1994). Normative Results on the Arabic Fear Survey Schedule III. **Journal of Behavior Therapy & Experimental Psychiatry**, 25, pp. 61-67.
- Abdel-Khalek, A. M. (2002). Why do we fear death? The construction and validation of the Reasons for Death Fear Scale. **Death Studies**, 26, pp. 669-680.
- Abdel-Khalek, A. M. & Eysenck, S.B.G. (1983). A Cross-Cultural Study of Personality: Egypt and England. **Research in Behavior & Personality**, 3, pp. 215-226.
- Abdel-Khalek, A. M. & Lester, D. (1999). Obsession-Compulsion in College Students in the United States and Kuwait. **Psychological Reports**, 85, pp. 799-800.
- Abdel-Khalek, A. M. & Lester, D. (2002). Can Personality predict Suicidality? A Study in Two Cultures. **International Journal of Social Psychiatry**, 48, pp. 231-239.
- Abdel-Khalek, A. M. & Lester, D. (2003a). Death Obsession in Kuwaiti and American college students. **Death Studies**, 28, pp. 541-553.
- Abdel-Khalek, A. M., & Lester, D. (2003b). The Kuwait University Anxiety Scale: A Cross Cultural Evaluation in Kuwait and United States. **Psychological Reports**, 9, pp.1109-1114.
- Abdel-Khalek, A. M. & Thorson, J. A. (2006). Religiosity and Death Anxiety in American and Egyptian College Students. In: M. V. Landow (Ed.). **College Students: Mental Health and Coping Strategies** (pp. 167-185). New York: Nova Science Publishers.
- Abdel-Rahman, H. (2002, August 17). Approaching the Qur'an: The Early Revelations [Review of the book]. Al-Ahram, Egypt, p. 6 [in Arabic].
- Abou El-Azayem, G. & Hedayat-Diba, Z. (1994). The Psychological Aspects of Islam: Basic principles of Islam and their psychological Corollary. **The International Journal for the Psychology of Religion**, 4, pp. 41-50.
- Al-Ahram Newspaper, (2002, September 1a). Edward Said asks the Writers of the World to support the Palestinian Issue. **Al-Ahram**, Egypt, p. 28 [in Arabic].
- Al-Ahram Newspaper, (2002, September 1b). Jackline Rose said that the Situation in the West Bank is Horrible as a Result of the Reoccupation, and the Illusion dominates the Israel Leaders. Al-Ahram, Egypt, p. 6 [in Arabic].
- Al-Ahram Symposium (2002, August 30). Manifestations of Resistance Culture in the Age of Globalization. **Al-Ahram**, Egypt, p. 35. [in Arabic].
- Al-Watan (2002, June 17). Na'eemahAl'Abed said Goodbye to her Martyr Son with a Smile. **Al-Watan**, Kuwait, p. 30 [in Arabic].

- Campbell, R. J. (1996). **Psychiatric Dictionary**. 7th Ed. New York: Oxford University Press.
- Dale, S. F. (1988). Religious Suicide in Islamic Asia: Anticolonial Terrorism in India, Indonesia, and the Philippines. **Journal of Conflict Resolution**, 32, pp. 37-59.
- El-Manna'a, A. (2002, June 23). Legal but Harmful Operations. **Al-Watan Newspaper**, Kuwait, p. 37 [in Arabic].
- Emara, M. (2002, September 6). Jersualem was built 300 Years before Judaism. **Al-Ahram Newspaper**, Egypt, p. 13. [in Arabic].
- Kok, L. P. (1998). Race, Religion and Female Suicide Attempters in Singapore. **Social Psychiatry & Psychiatric Epidemiology**, 23, pp. 236-339.
- Koskinen, O., Pukkila, K., Hakko, H., et al. (2002). Is occupation relevant in suicide? **Journal of Affective Disorders**, 70, pp. 197-203.
- Leenaars, A. A. (2001). Suicide Prevention in Schools: Resources for the Millennium. In D. Lester (Ed.). **Suicide Prevention: Resources for the Millennium** (pp. 213-235). Philadelphia, PA: Brunner-Routledge.
- Lester, D. (2001). The Epidemiology of Suicide. In D. Lester (Ed.). **Suicide Prevention: Resources Forthe Millennium** (pp. 3-16). Philadelphia, PA: Brunner-Routledge.
- Lester, D. & Abdel-Khalek, A. M. (1998a). Depression in College Students in the United States and Kuwait. **Psychological Reports**, 83, p. 410.
- Lester, D. & Abdel-Khalek, A. M. (1998b). Suicidality and personality in American and Kuwaiti students. **International Journal of Social Psychiatry**, 44, pp. 280-283.
- Lester, D. & Akande, A. (1994).Attitudes about suicide among the Yoruba of Nigeria. **Journal of Social Psychology**, 134, pp. 851-853.
- Mahmound, J. (2002, August 18). Human dignity in Islam.Al-Ahram **Newspaper**, Egypt, p. 31. [in Arabic].
- O'Connor, R. C., & Sheehy, N. P. (2001). Suicidal Behavior. **Psychologist**, 14, pp. 20-24.
- Sabeq, A. (1996). [Fig'h al Sunnah]/ **The principles of Islamic Sunna**. Egypt, Cairo: Dar Al-Fateh, Vol. 3. (in Arabic).
- Saleh, M. (2000).**The philosophy of Istish'had [Martyrdom] in Islam**. **Al-Haweyya [The Identity]**, Kuwait, 25, pp. 28-29. [in Arabic].
- Simpson, M. E. & Conklin, G. H. (1989). Socioeconomic Development, Suicide, and Religion: A Test of Durkheim's Theory of Religion and Suicide. **Social Forces**, 67, pp. 945-964.
- Smooha, S. (1999).The advances and limits of Israelization of Israel's Palestinian citizens. In K. Abdel-Malek & D. C. Jacobson (Eds.), **Israeli and Palestinian identities in History and Literature** (pp.9-33). New York: St. Martin's Press.
- Stack, S. (2001). Sociological Research

into Suicide. In D. Lester (Ed.), **Suicide prevention: Resources for the millennium** (pp. 17-29). Philadelphia, PA: Brunner-Routledge.

_ **The Noble Qur'an, English Translation of the Meanings and Commentary** (1996). (M. T. Al-Hilali, & M. M. Khan, Trans). Madinah, Kingdom of Saudi Arabia: King Fahd Complex for the Printing of the Holy Qur'an.

_ Thorson, J. A., Powell, F. C., Abdel-Khalek, A. M. & Beshai, J. A. (1997). Constructions of Religiosity and Death Anxiety in Two Cultures: The United States and Kuwait. **Journal of Psychology & Theology**, 25, pp. 374-383.

_ Wang, D., Wang, Y. T. & Wang, X. Y. (1997). Suicide in Three Ethnic Groups in Huhhot, Inner Mongolia. **Crisis**, 18, pp. 112-114.

Neither Altruistic Suicide, nor Terrorism but Martyrdom

Ahmed M. Abdel-Khalek

Abstract

The objective of the present article is to elucidate specific Islamic and psychological aspects of martyrdom (Istish'had) in the light of one example, that is the Palestinian martyrs in the Israeli-Palestinian conflict. This conflict has historical roots. The day the British mandate in Palestine ended in 1948, Israel was declared a state. War broke out, and around half of the Palestinian population was expelled in the diaspora. In 1950, Israel passed a law that gave every Jew in any country the right to emigrate to Israel. Israelis are burying POWs alive, using arrested people as human spare parts for wounded Israelis, demolishing more than 17,000 houses, and bulldozing the farm lands. Therefore, the soil has become fertile ground for the growing phenomenon of martyrdom and has given rise to a culture of resistance, based on the Islamic principles of Jibad (boly war) and the right to resist the Israeli colonizer. Several specialists in Islamic law (Shari'a), consider that martyrdom is legitimate and does not count as suicide of any kind.

Keywords: Altruistic Suicide, Terrorism, Martyrdom, Islam, Israeli-Palestinian Conflict.